تمهيد: تعتبر حركة الكشوفات الجغرافية أهم نتيجة عملية للنهضة، حيث تمكن الملاّحون الأوربيون من التوصل إلى نتائج هامة في مجال الكشف الجغرافي وفي تاريخ العالم ككل، فقد كانت معرفة الأوربيين خلال العصور الوسطى بالعالم الخارجي ضئيلة ومعظمها خاطئ ، فهي لا تتجاوز سواحل شمال إفريقيا، وجزءا من ساحلها الشمالي الغربي، وقد كان الاعتقاد السائد أن المحيط الأطلسي والبحار الجنوبية مأوى للشياطين والجن والوحوش، وتوجد صخور في البحار تجذب إليها السفن إذا ما اقتربت منها، فكانت هذه التصورات مصدر تخويف وترهيب، وفي الوقت نفسه شكلت حافزا شجّع على المغامرة وركوب البحر، فقد أشاع المغامرون أنه توجد بالبحار جبال تُشعّ منها الأحجار الكريمة.

وكان العرب قد عرفوا الطرق البحرية منذ القدم، ووصلت سفنهم التجارية إلى الهند والصين، وكانت لهم معرفة رائدة بعلم الجغرافيا والفلك والبحار وحركة الرياح، و اشتهر من بينهم جغرافيون ورحالّة أمثال: ابن حوقل، الإدريسي وبن بطوطة...

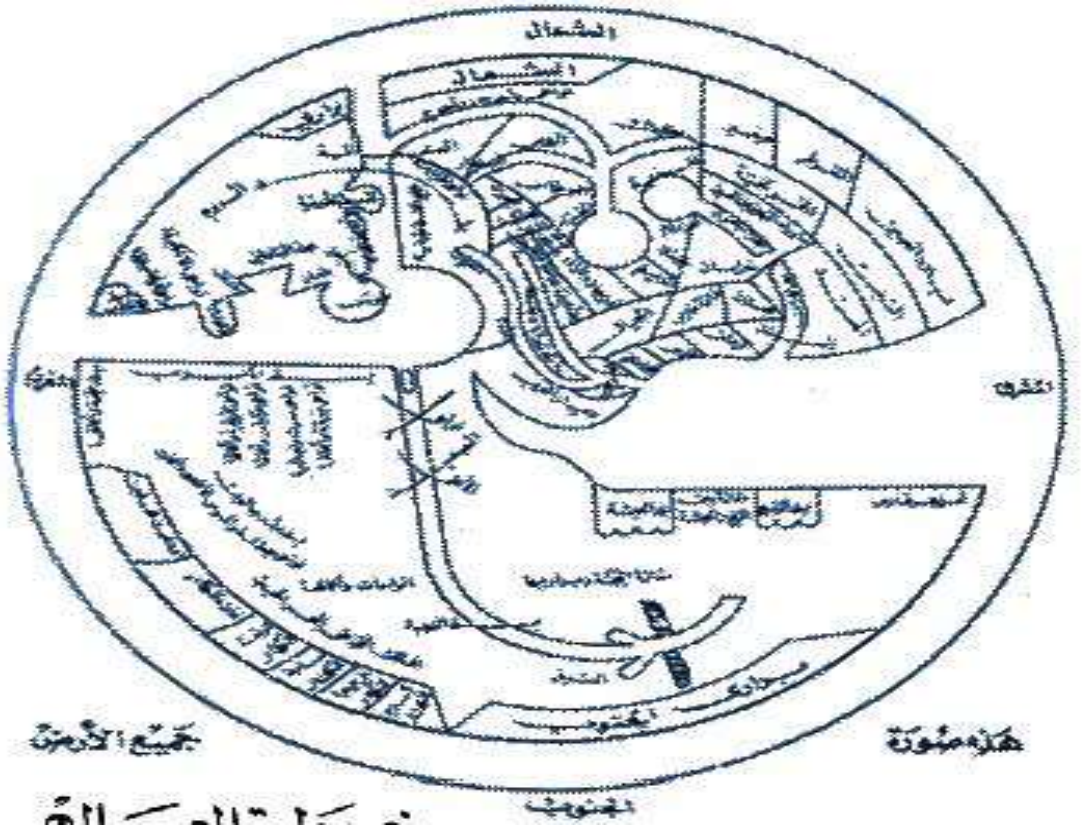

خريطة العالم لابن حوقل (367هـ-977م)

أولا: دوافع قيام حركة الكشوفات الجغرافية:

انطلقت حركة الكشوفات الجغرافية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين (15-16م)، حيث تنافست دول أوربا الغربية فيما بينها، سيما البرتغال واسبانيا، أما أهم دوافعها فهي:

1- الدوافع الاقتصادية: رغبة دول أوربا في الوصول إلى منتجات الشرق (التوابل، البخور، الأحجار الكريمة، الحرير...)، دون وساطة، وبالتالي التخلص من الرسوم الجمركية التي تفرضها المماليك في الشام ومصر على التجارة الشرقية، أثناء مرورها على هذين البلدين، فقد كانت معظم السلع الشرقية تسلك طريقين رئيسيين إلى أوربا في العصور الوسطى، **أولهما:** طريق الخليج العربي عبر البصرة وبغداد وصولا إلى ثغور الشام. و **ثانيهما:** طريق البحر الأحمر عبر السويس ومنها إلى الإسكندرية، وهذا ما أدّى إلى ارتفاع أسعار هذه المنتجات التي تدخل في تركيبات عدة صناعات من بينها صناعة الدواء، ووصولها إلى القارة الأوربية بأثمان باهظة، جعلها تنافس أحيانا أسعار الذهب والفضة (فقد كان سعر "البُهار" مثلا يماثل أو يفوق أحيانا سعر معدن الفضة، لذلك كان يُطلق على التاجر الغني "كيس بهار").

2- الدوافع الدينية: يَعتبر الكثير من المؤرخين، الدوافع الدينية هي المحرّك الأساسي لحركة الكشوفات الجغرافية، حيث أدّى لتعصّب المسيحيين خاصة البرتغاليين، الذين كانوا يهدفون إلى تحويل المسلمين في غرب أفريقيا إلى المسيحية الكاثوليكية، فجعلوا هدفهم: **"ضرب قوة المسلمين في مناطق غرب أفريقيا وشواطئ الأطلسي والمتوسط"**. أما الأسبان فكانوا يرغبون من جهتهم في نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي بين السكان الأصليين والوثنيين فيما وراء البحار، وقد استهدفت هذه الروح الصليبية كذلك تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي، وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر.

كما ظفرت الكشوفات الجغرافية باهتمام كبير من الباباوات، الذين أصدر بعضهم عدة مراسيم تُخوّل اسبانيا والبرتغال الحق في ملكية كل إقليم جديد، فقد أرسل البابا **نيقولا الخامس** (1447-1455)، عام 1454م مرسوما إلى ملك البرتغال، اشتمل على ما أُطلق عليه تسمية **"خطة الهند"**، وهي تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوربا الكاثوليكية للقضاء على الإسلام، كما كانوا يَعدُون المشتركين في الرحلات الكشفية بالعفو عند الحساب يوم الآخر، كما أظهر بعض هؤلاء المغامرين تعصبهم الديني مثل **"كريستوف**

كولومبس Christophe colombos"، الذي كان يعد باستخدام الأموال التي سيجنيها في رحلاته البحرية لاسترجاع بيت المقدس.

3- الدافع العلمي: شَهدت علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا تطورا كبيرا، وأصبح الاهتمام بها يتزايد، دون إهمال البحث عن الأسواق ومصادر الثراء طبعا؛ ويعود الفضل في دفع حركة الكشوفات الجغرافية إلى الأمير البرتغالي **هنري الملاّح Don Henrique**، الذي لقيَ الدّعم من القصر الملكي، فقام بتأسيس أكاديمية تهتم بهذا المجال (الجغرافيا، الرياح، الملاحة، بناء السفن)، وهو ما نتج عنه امتلاك البرتغال لسفن ضخمة، كما كان **هنري الملاّح** يُرسل طلاب العلم إلى الحواضر الإسلامية لنقل المعارف والعلوم عن العلماء العرب والمسلمين، حيث تذكر المراجع أنّ الجغرافي العُمَاني **"أحمد بن ماجد"** زوّد الرحّالة البرتغالي **"فاسكو دا غاما" Vasco da gamma** بمجموعة من الخرائط، وأرشده إلى الطريق المؤدي إلى الهند.

4- الدافع السياسي: أدّى تنافس الدول الأوربية الكبرى على الزعامة و السيادة إلى سعي كل دولة للبحث عن مناطق نفوذ وتوسّع، لاستغلال خيرات هذه المناطق ثم استعمارها، فأسّست كل من اسبانيا والبرتغال إمبراطوريات استعمارية خارج أوربا، نتج عنها استغلال بشع لمقدّرات وثروات هذه الشعوب، والتي تعرّضت بدورها إلى الاستغلال. وقد فتحت هذه الحركة الكشفية أبواب الاستعمار الحديث ، حيث بدأ التنافس الاستعماري بين مختلف القوى الأوربية.

ثانيا: الكشوف البرتغالية:

كانت البرتغال السبّاقة في مجال الحركة الاستكشافية، حيث تمكّن **هنري الملاّح (1394-1460م)**، من اكتشاف جزء من سواحل إفريقيا الجنوبية، إذ وصل عام 1446م إلى مصب نهر السنغال وإلى الرأس الأخضر، وبعد وفاته اجتاز البرتغاليون خط الاستواء، حيث وصلوا عام 1482م إلى نهر الكونغو، واحتكروا الملاحة الساحلية (من الشاطئ الإفريقي إلى غينيا)، وفي عام 1488م خَطَت الكشوف الجغرافية البرتغالية خطوة هامة في مجال الكشف الجغرافي، حيث اكتشف **"بارثيلمو دياز"** رأس الرجاء الصالح cap de bon espérant، ثم توقفت رحلته بسبب التمرّد الخطير للبحارة البرتغاليين المرافقين له.

وبعد فترة ركود استأنف البرتغاليون جهودهم في هذا المجال، بغية الاهتداء إلى طريق بحري متصل إلى الهند يدور حول إفريقيا من الجهة الجنوبية، حيث تمكن الملاّح **"فاسكو دا غاما"** سنة 1497م، من اجتياز رأس الرجاء

الصالح ووصل إلى سواحل الهند، وكان البرتغاليون يتركون حامية عسكرية عند كل منطقة يصلون إليها، وقد كان لهذا الاكتشاف الأثر السيئ المباشر على المماليك في مصر والشام.

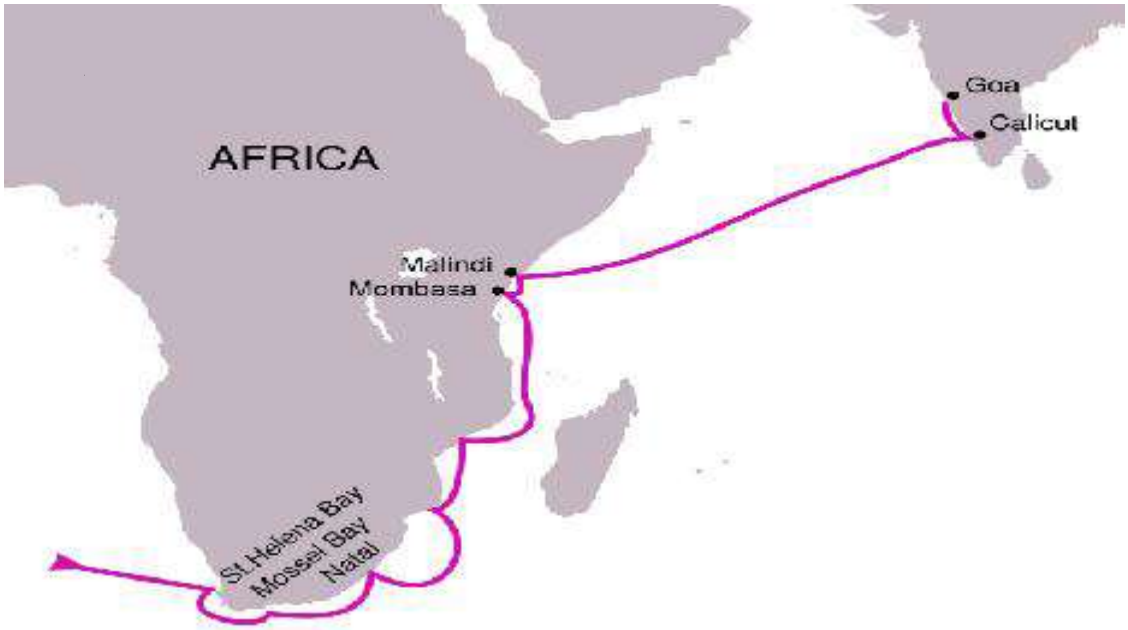

الطريق الذي اتبعه فاسكو دا غاما في رحلته الأولى (1497–1499)

ثالثا: الكشوف الاسبانية:

لم يقف الأسبان موقف المتفرج أمام تدفق الأموال على خزينة البرتغال، فأرسلوا حملة بحرية بقيادة الملاّح الجنوي (نسبة إلى مدينة جنوة الإيطالية) **كريستوف كولومبس** عام 1492م، الذي وصل إلى إحدى جزر البهاماس، وأطلق عليها اسم سان سلفادور Saint-Salvador، ثم كشف بعدها كوبا وهايتي (اسبانيا الصغيرة= Espanola)، وفي مارس 1493م، عاد إلى اسبانيا مُعتقدا أنه وصل فعلا إلى الطرف الشرقي للعالم (الهند)، ثم قام برحلته الثانية لاحتلال هذه الأراضي الجديدة واستعمارها، واستخراج الذهب ونشر المسيحية؛ فاكتشف جامايكا وعاد إلى اسبانيا سنة 1497م، وكانت آخر رحلاته سنة 1502م.

وكان دُعاة المسيحية يُرافقون هذه الرحلات الاستكشافية، وقد أدّى استخدام **كولومبس** الرقيق (العبيد) في الممتلكات الجديدة، إلى إثارة غضب **"إيزابيلا"**، فأُهمل أمره وتوفي سنة 1506م، إلا أنّ رحلاته كان لها أثران:

أولهما: قد عَمَد الملوك الكاثوليك إلى تثبيت ملكيتهم لهذه الأراضي الجديدة، خاصة عندما نشَط البرتغاليون في استكشافاتهم.

ثانيهما: فتح الطريق أمام رحلات الأفراد والمغامرين، فاستطاع الرحّالة الجدد بين عامي 1499-1508م، الوصول إلى أسبانولا ثم إلى مصب نهر الأمازون وبرزخ بنما، وتبع ذلك توطُّن الأسبان بأمريكا الوسطى والجنوبية.

في سنة 1512م، اتبع ملاّح آخر هو "**أمريكو فيسبوتشيAmerigo Vespucci** "الطريق الذي سلكه **كولومبس**، فاكتشف العالم الجديد (أمريكا)، الذي أخذ تسميته من اسم هذا المكتشف تخليدا له؛ ثم توالت الرحلات الاسبانية، حيث تمكن الرحّالة "**فرديناند ماجلان Magellan**" من الدوران حول الأرض بين سنتي 1519-1522م، وقد أحدثت هذه الرحلة ثورة حقيقية في مجالات عدة، إذ أثبتت كُروية الأرض ودورانها حول الشمس، بعدها تسابقت الدول الأوربية إلى الحركة الاستكشافية بهدف التوسع الاستعماري.

مسار رحلة ماجلان ودورانه حول الأرض (1519-1522).

رابعا: نتائج الكشوفات الجغرافية:

1- من الناحية الاقتصادية: انتقل مركز الثقل التجاري إلى المحيط الأطلسي بدلا من البحر الأبيض المتوسط، وتراجعت مكانة البلاد العربية (مماليك مصر والشام والعراق) وكذلك الجمهوريات الإيطالية، وفي الجانب الزراعي عرفت أوربا محاصيل جديدة من بينها البطاطس والكاكاو والتبغ، وأصبحت عنصرا هاما في القطاع التجاري. كما تدفقت المعادن النفيسة على أوربا وبالتالي أخرجتها من مأزق الأزمة الاقتصادية، وبعد أن زادت رؤوس الأموال،

ظهرت الرغبة في استثمارها، لذلك توجهت الدول الأوربية إلى استعمار هذه الدول، خاصة الدول التي تتوفر بها المواد الخام الضرورية للإنتاج الصناعي.

2- **من الناحية السياسية:** أدّت الكشوفات الجغرافية إلى الاستعمار والتوسّع، وبالتالي وقعت مشاحنات بين الدول الاستعمارية، مثال ذلك حرب السنوات السبع بين عدة دول أوربية (1756-1763م). وقد اشتد الصراع بين أسبانيا والبرتغال، اللتين لجأتا إلى البابا **اسكندر السادس** لتحكيمه، فعقدت معاهدة **توردیسیاس Tordesillas**، والتي نصت على تقسيم العالم بخط وهمي يمتد في المحيط الأطلسي من الشمال إلى الجنوب.

3- **من الناحية الدينية:** تم تعويض الكنيسة الكاثوليكية في روما عمّا فقدته من أقاليم بسبب حركة الإصلاح الديني، فأدخلت اسبانيا السكان الأصليين لأمريكا الجنوبية في العقيدة الكاثوليكية، لكن البرتغال لم تُفلح في تنصير المسلمين في الشرق.

4- **من الناحية العلمية:** تطوّرت وسائل المواصلات البحرية، وحدث انقلاب في المبادئ الأساسية التي يقوم عليها علم الجغرافيا، وهذا بإثبات كروية الأرض ودورانها حول الشمس، زد على ذلك التوصل إلى اختراع آلات دقيقة، كما تطورت علوم البحار والملاحة والأرصاد الجوية.

5- **من الناحية الاجتماعية والثقافية:** انتقلت الشعوب الأوربية من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، وتحسّنت أوضاعها الاجتماعية تدريجيا، حيث برزت طبقة اجتماعية جديدة، يمثّلها التّجار الذين ينشطون في الدول المستعمَرة، كما أرسَت حركة الاستعمار نظام التفرقة العنصرية، حيث كان البيض هم الأسياد، وازدهرت تجارة العبيد، وتعرّضت بعض الشعوب في المناطق المكتشفَة (الهنود الحمر مثلا) إلى الإبادة الجماعية.

خلاصة القول: كانت حركة الكشوفات الجغرافية حركة اقتصادية، دينية، سياسية وعلمية، أحدثت انقلابا في دول أوربا الغربية وفي أحوال البلاد المكتشفة، رغم سلبياتها إلا أنها تُعدّ مظهرا من أهمّ مظاهر التطور البشري في العصر الحديث.